هاربةٌ أنـــا ..!.

آية القاضي

هاربةٌ أنا من أحزانى.. هاربةٌ إلى مكانٍ لا أعرف فيه أحداً ولا أحداً يلقاني.. فقد حَملتُ على عاتقي من الأحزان ما كفاني.. فأصبحت أعيش بعالمٍ لا أعرف فيه أين أجد مكاني؟.. وأصبح القريب يتجاهلني والحبيب ينساني!.. آسفةً على من وهبته قلبي فتكبر على عشقي وجفاني!.. فهل ألقى اللـــوم على أشخاص أحببتهم أم ألقيه على زمانً ليس بزماني؟!.. منحت لهم فيه من الحب الكثير ولم يمنحوني سوى آلامي.. فما بالكَ يا زمان تقسو علىّ وقد عِشت طوال عمري أعاني..!

فأصبحت أشكو للناس مرارة الأيامِ.. فلم أجد من بينهم من يسمعني ومن يشاركني أشجاني.. ففاض الكيل بي وفر الدمع من عيني، وأصبح الهم يطغاني.. وقلبي ضعيف لا يقْدِر على تحمل الصعاب والآلامِ.. وعندما أتذكر ما مررت به يزداد قلبي ضعفاً وهوانِ..!!

فأقسمت أن أغلق قلبي وألقِ بمفتاحه في مكان لا يخطر ببال أنسٍ ولا جانٍ!.. فإليك يا من تقرأ كلماتي هل تشفق على حالي أم تظن أنى أعشق الحزن والكآبة عنواني؟.. أم أنك مررت بتجربتي وتدمع عيناكَ لأنك تستشعر أحزانى.. هل من أحد يسمعني! هل من أحد يجيب ندائي ويرد على سؤالي.. كيف أطيق العيش في هذه الحياة وأنا لم أفرح فيها إلا ثواني..؟!

وقلبي يحدثني إلى متى سأظل أصطنع الابتسامة لألقى من الناس الاستحسان؟!.. (هيهات يا قلبي ألا أخبرتني أنك لن تفعل ذلك مجدداً، لماذا تتذكر ما مضى لماذا تبوح بأسرارك لماذا تحزن من حولك!! كفاك يا قلبي فلك الله، هو عون لك، وشفاءً من كل هم وسقمٍ بك، وشفاء لما جعلته يدور بأذهاني)

فعندما تذكرت أسم ربى خشع قلبي وأنتفض كياني.. فتركت مكتبي وتوضأت وركعت لربى الذي وجدني وأحياني.. وفرغت من صلاتي وأطمئن قلبي وأخذت أقرأ لعدة ساعاتً في القرآن.. لم أستشعر الوقت ولم أبالِ بما كنت فيه من حالٍ، وعلت الابتسامة شفتاي وصار وجهي فرحاً مشرقاً، عندما قرأت قولَ الله تعالى:- {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُون. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِين. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِين}.. فكأن تلك الآيات بُث في حروفها ما أشداني وهداني..

وفى هذه اللحظات طرقت أمي باب غرفتي، وعندها نظرت إلى وأنا جالسة على مكتبي ويبدو على وجهي الاطمئنان.. ففرح قلبها وأطالت الدعاء لي، فكم أشاعت في قلبي من الحنانِ.. وأغلقت بابي وهى تبتسم ابتسامة ملكتني ملأتني فرحاً وحركت بداخلي الوجدانِ.. وكأنها تعانقني وتهمس في أذني «ما زال يوجد في الحياة أناسً تحب أن تراني بخير ولسانها لا يكف عن الدعاء لي وقلبها يأبى نسياني.. لأنه وبحق كثيراً ما يهواني».. يا لكِ من أمٍ عظيمةٍ، كم أحبك يا أمي وكم أنا مَدِينةٌ لكِ بكثيرٍ من الشكر والامتنانِ

ونسيت ما كان من قبل ونسيت من ظلمني وأبكاني.. واكتفيت بأنس ربى فهو خير أنيسً وخير عونٍ وبقلبي منبع السلام.. وأصبحت أناديه بحبيبي فهذه المرة أنا على ثقة تامة بأني أصبت الاختيار واخترت من لن ينساني!.. من أحبني

بصدق وأنزل على قلبي السكينة والطمأنينة وجعلني أشعر بأمانِ.. أحبك ربى يا من ملكت قلبي وأغنيتني بحُبَك عن كل بشرياً وداويتني من تمرد الإنسانِ.. يا من بيدك أن تجعل حياتي تشيع بالحب والسعادة والفرح من كل ألوانِ.. وتجعل قلبي بحبك ينبض بالأمل وينسى التشاؤم والأحزانِ.. يا من تكفيني عن غيرك حينما أتضرع أليك في شكواي يا من أعلم بحالي منى وتحرمني من القليل لتعطيني الكثير أحبك خالقي أنت وحدك من تبعث في قلبي الرضا والسكينة والاطمئنان.. أشكو إليك فتحسن استماعي، أدعو لك فتجيب دعائي، أحبك ربى ولن أرضى بعد اليوم بضعف قلبي وهواني.. فهل لي أن اضعف وأنت بجانبي وحبك يطغاني؟

ماذا حدث لي وكيف تغير حالي وكياني.. فأنا منذ لحظات كدت أتمنى الموت وأذكر غدر زماني.. عجزت عن أدراك ما حدث لقلبي كما عجزت كلماتي وعجز لساني.. وصرت أحْمِدُ ربى عما مررت به ونسيت ما كان وما أكدرني وأبكاني.. نعم فقد صار تفكيري عقلاني.. تغير حالي وتبدل وما هي إلا بضع ثواني.. وأمتلئ قلبي بالحب والتفاؤل ووجهي يبعث ابتسامات كالورود ويشيع الحب والفرح في قلب كل إنسانِ.. أحْمِدُ الله الذي وهبني القوة وأنار قلبي بالإيمانِ.. ومن حبه لي اختبرني ولمصلحتي ابتلاني...!